

## «العمدة، لابن رشيقي» عمدة في تحقيق التراث

كانت المطبعة فتحاً مبيناً في عالم الفكر والثقافة ، حيث نقلت المخطوطات من دائرتها الضيقة المحصورة ، إلى دائرة أرحب وأوسع ، وإن فقد الناس لذة المغامرة والكشف ، التي تحققها قراءة المخطوطات ، بخطوطها المتنوعة ، ما بين مشرقية ومغربية . وبشكولها المتباينة التي كان يتفنن فيها الخطاطون من ذوى الملكات والحرفة .

وكان الناس في مصر يعودون إلى هذه المخطوطات حين الطباعة ، ولا يذكرونها ، وحسبهم أن يقدموا نصاً جيداً أميناً ، وكانوا ذوى قدرة هائلة على الضبط والتحرى ، نحن مدينون لهم بها ، ولا نكاد نشاطرهم إياها إلا من نفر قليل هم ملح الأرض .

في مرحلة تالية يبرز في صدارتهم الأخوان شاکر (أحمد ومحمود) وعبد السلام هارون ، وعلى السباعي ، وعلى النجدى ، ومحمود الطناحي ، والنبوي شعلان ، وكلهم على تفاوت أصحاب قامات باذخة في عالم التحقيق ، وداخل معهم طائفة أخرى يعرفهم القراء المتخصصون .

والتحقيق فن عسير ، وإن بدا للأغرار أنه ذلول حتى في زمن الحاسب الآلي ، والتقنية الحديثة ، لأنه في حاجة إلى عالم خبير ، ربما تسعفه بعض الشيء هذه التقنيات ، لكنها لا تحقق ، وهيئات !! .

وثمة نفر ولجوا عالم التحقيق ، وهم ليسوا بأهله ، يحققون المتون ، ومذكرات الطلاب التي كانوا يدونونها عن الأشياخ ، وليس فيها شيء يستأهل العمل ، وبعضهم يجعل تلاميذه يقومون بالجهد . ويكتب الشيخ اسمه محققاً ، ولم يتم حتى بالمراجعة ، ويتلقى الناس هذه الأعمال بالسمعة الحسنة والواسعة التي تقترن لديهم بالأشياخ ، وما تلوا الكتاب ولاخطته أيماهم !!

وكتاب «العمدة» لابن رشيق القيرواني ، يمثل - في رأينا قمة النقد والبلاغة على أيامه ، ويناصي ما كتبه المشاركة في هذين الفنين ، ويمكن أن نعهده «عمدة» هذا العمل لدى أهل المغرب ، جمع الكتاب آراء المشاركة في النقد والتذوق ، وكان المؤلف يتدخل «بذوقه» المثقف في النص الذي يعلق عليه ، مادحاً وقادحاً ، ومعللاً في الأعم الأغلب ، وقد نقل «ثقافة نقدية» نحن أهملناها كثيراً ، لحساب اتجاهات أخرى على أهميتها ، ولكن هذا التراث داخل في نسيج «ثقافة الناقد الأدبي» ، وكان ابن رشيق «طلّعة» طامح البصر إلى ما يستطيع التوصل إليه ، وقد التقى مع نقاد أوربيين عن طريق «توارد الخواطر» حين تتجه إلى موضوع واحد ، ولينظر القارئ - غير مأمور - إلى التقاء بندتو كروثي مع ابن رشيق من وراء القرون ، فيما يتعلق بسريان العلم إلى الشعر الذي يحول القصيدة إلى نظم غث وبارد ، والباحث - عموماً - يستطيع أن يطالع بعض مشابهات أخرى مع النقد الحديث ، وما ذاك إلا لأن العلم واحد ، وثقافة الناقد وملكته في ذرعها أن ترد عليها خواطر متجانسة أو متقاربة حين تتجه إلى موضوع واحد ، ومن ثم يكون التراث داخلاً في ضميمه الثقافة النقدية الحديثة ، لمن ألقى السمع وهو شهيد .

كان الشيخ محمد الخانجي قد أصدر نشرته لكتاب «العمدة» ، ونفدت نسخها إلا قليلاً جداً ، ثم أصدر الشيخ محيي الدين عبد الحميد نشرته ، وهذا الرجل قد اعتمد تماماً على نسخة الخانجي ، دون أن يشير ، وهذه من آفات التحقيق ، ولعل الشيخ كان في عجلة من أمره فطبع الكتاب دون أن ينظر فيه مكتفياً بما قيده طلابه في الأزهر عن هذه النسخة ، ووضع الشيخ اسمه عليها ، والرجل - عندنا - متضلع في اللغة نحوها وصرفها ، وكل ما يتعلق بهما ، وقد حضرنا بعض محاضراته أو دروسه من باب معرفة الشيوخ والبحث عنهم ، ولم أكن من طلبته ، فكان الرجل معجباً في تعليقاته النحوية ، بصيراً يعرف الخبء وسر الكلام ، وحين طالعنا بعض تحقيقاته في التراث الأندلسي ، وقفنا بالوصيد ، وقلنا : لقد «دخل الأسد غيلاً غير غيله» ، فلا يكاد يستقيم له النص وخاصة الأعلام ، وكنا نجمجم ولا نكاد نبين ، حتى جاء محقق كتاب العمدة في طبعته الأخيرة ، صديقنا الدكتور النبوي شعلان الأستاذ بجامعة الأزهر ، وأعمل قضية «الجرح

والتعديل» ، وكشف عن مساوئ التحقيق ، غافلاً عن العيون اليواظ التي قادت الدكتور شعلان إلى بيان العوار والأخذ ، الذى هو نقيض الأمانة فى صنيع الشيخ- وشهد شاهد من أهلها ، وبين عوار التحقيق فى تخريج الآيات القرآنية والأحاديث التى ادعى الشيخ تخريجها ، وهى من نقوله غير الأمانة من تحقيق الخالنجى ، ونحن فى حاجة إلى «تحقيق التحقيق» كحاجتنا إلى «نقد النقد» .

جاء تحقيق شعلان شعلة من التوهج ، وقمة من المعرفة بالتراث العربى كله ، وغير عجيب أن يظل المحقق خمسة عشر عاماً فى عمله فى العمدة ، حيث هوامشه الهائلة فى تحقيق الأعلام والتعريف بهم ، وتخريج الشعر والنثر ، وتخريج النثر مما تنوء به همم الرجال ، وجاءت فهارسه آية من التمهيص والتدقيق ، وأثبت امتلاكه الشديد للعوضى من الكلام ، وتذوقه الجيد للشعر ، وتعليقاته ، وليس هذا النص بكتابه الوحيد ، بل إنه أخرج طائفة جيدة من التراث الشعرى والبلاغى ، ولعله فى كل هذا يذكرنا بصنيع فرسان التحقيق ، ويعيد لمعهد وجهاً تغشاه كثير من الادعاء والتراخى ، ويتسبب إلى تلك المدرسة الشاكرية بأعلامها ، وتلاميذها محمود شاكر والطناحى ، وعادل سليمان ، وغيرهم ممن أدوا ويؤدون خدمة جليلة لهذه الأمة ، التى تتخطفها رياح التغريب بكثير من التنفج والادعاء ، وبوشل يسير من المعرفة والنقد القديم ، تحية لهذا الجهد الكريم الذى لا يعرفه إلا من كابده ، والذى يصل ماضياً عظيماً بحاضر نرجو أن يتصل بخيطه الذهبى ، وأن يطير الجناحان معاً ، إذا أردنا لأنفسنا أن تظل الجذوة متقدة وذاكية .

## جنة الرضا لابن عاصم الغرناطي

درج الناس أن يقولوا : إن هذا كتاب يسد فراغا هائلا في المكتبة العربية حتى صارت الكلمة من العبارات المسكوكة ، تقال في محلها وغير محلها ، وغدا الناس لا يثقون فيها ولا في قائلها ، إلا أننا إزاء هذا الكتاب ننزع عن الكلمة ما لحقها من تداول غير حقيقي لنقولها عذراء عن كتاب «جنة الرضا» ونحن آمنون أن القارئ سيقولها معنا ، حين يقف على أهمية كتاب في خطورة كتابنا هذا .

والمكتبة الأندلسية عامة ، والغرناطية خاصة لاتزال في انتظار من يكشف عنها غبار الخمول ، وإن كانت هناك جهود محمودة يبذلها العاكفون على التراث تحقيقا ونشراً وقرأة واستيعاباً ، ولا يكفي لهذه المكتبة أن يعرف المحققون العربية معرفة وثيقة ، بل إنهم في حاجة ماسة إلى معرفة الإسبانية ، حتى الطور القديم منها ، ومن هنا تكمن الصعوبة في ولوج مثل هذا الحقل العسير من التراث العربي عامة ، والأندلسي منه خاصة .

مؤلف هذا الكتاب من دوحة تفيأت ظلال العلم والوزارة والقضاء والفقہ ، فأبوه أبو بكر بن عاصم الوزير الفقيه القاضي ، ومؤلفاته متعددة أهمها حدائق الأزاهر ، والابن يتولى مناصب متعددة في دولة بني نصر ، ويصبيه من سعودها ونحوسها كثير ، مما يعتري ذوى المناصب الخطيرة في دولة ، تتأرجح فوق هاوية من الزئبق السياسي ، تحوطها سياجات من الغدر والنفاق والحقد ، تنال من يتعلق منها بطرف ، فما بالك بمن يرسمها ويخطط لها ، ونديم السلطان مثل راكب الأسد .

اتفقت المصادر المشرقية والأندلسية على نعت مؤلف هذا الكتاب أبي يحيى بن عاصم بنعوت متواترة منها ما قاله المقرئ عنه «الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الشاعر المفلح النائر الحجة . إلى آخر ما قاله المقرئ وغيره ، وقد توفي ابن عاصم سنة ٨٥٧ هـ ، أي قبل سقوط غرناطة بنحو أربعين سنة ،

وعاش كما عاش قبله ابن الخطيب ، وتسبب تقريبا الوظائف نفسها التي تسببها لسان الدين قبله ، وربما أصابه ما أصاب سابقه من محن ، ولقى كلاهما المصير نفسه قتلا ، حيث ذبح ابن عاصم حين ذبح سلطانه محمد التاسع المنبوز بالأعسر .

وإذا كان كثير من الوزراء ينسون بعد عزلهم أو موتهم ، فإن الوزير ابن عاصم خلده مآثره العلمية والأدبية ، وأصبح لقب الوزارة لا يزيدنا معرفة به . وللرجل كتابات كثيرة ، وصل إلينا بعضها ، لكن أهمها هو كتاب «جنة الرضا» ، وكأننا بالمؤلف في عصر من أسوأ عصور الإسلام بالاندلس ، إنما أراد أن يسلي مواطنيه على طريقه «الفرج بعد الشدة» بما حدث من الأنواء العاصفة والرزايا القاصفة ، ولم يكن الرجل يحذر مواطنيه على طريقة الرضا بالتطبيع ، الذي كان يتسلل واضحا وغير واضح في المجتمع الغرناطي ، والبلاط الغرناطي خاصة ، حيث تراوحت السياسة بين المهادنة والحرب ، وبين النصر والهزيمة ، وكانت أكثر ، حتى ضاعت غرناطة غدراً وخيانة وهزيمة أيضاً ، لم يكن الرجل كذلك بل كان يبت في كثير من الأحيان الثقة ، وإن كانت ظلال اليأس تلقى بكثافتها .

وإذا كان الرجل يستجلب وقائع الدهر متخذاً منها مثلاً وعبرة ، فإن أهمية الكتاب تكمن في أن المؤلف من رجال الطبقة الحاكمة ، ويرى ما لا يراه عامة الناس ، ويورد حوادث تاريخية هو مشارك في صنعها وراصد لها أيضا ، وهذا الرصد مما يزيد من قيمة الكتاب حيث صاحبه شاهد عصر وصانع أحداث ، وربما يشارك ابن حزم في إيراد حوادث هو صاحبها أو رآها رأى عين ، وهي حوادث نادرة عن أعلام عصره ، كما أنه ينقل أشياء لم ترد إلا في كتابه حيث ضاعت أصولها أو لم تنشر بعد ، وكثير من هذه الأشياء موظفة لغرض واحد أراداه المؤلف ، وهو معالجة المحن والكوارث التي تصيب الأفراد والأمم ، ويوجه خطاباً إلى أهل غرناطة له قيمة تاريخية هائلة .

وبعد أن أورد المؤلف في مقدمته أبواب الكتاب نثراً ، نظمها شعراً في قصيدة بلغت مائة وعشرين بيتاً ، نجت في أغلبها من جفاف المنظومات العلمية ، مما يشي بأن صاحبنا شاعر في زمن سطت فيه عجمة التكلف والتمحل .

ومحقق الكتاب هو الدكتور صلاح جرار ، ونشره في الأردن ، وهو رجل له قدم راسخة في تحقيق نص عسير كهذا ، مستوفياً شرائط التحقيق العلمي ، وتدسس إلى طريقة المؤلف وأسلوبه العسير الذي يشبه أسلوب ابن الخطيب ، وتحمية المحقق واجبة حين نقرأ من خلاله سفرًا جليلاً تجول تضاعيفه ما بين تاريخ وسيرة ذاتية وأدب وفن وأخلاق فهو جنة الرضا ، يسد فراغاً هائلاً - كما قلنا آنفاً- في المكتبة الأندلسية .

## أبوفهر ذلك النمط الصعب

أبو فهر ، محمود محمد شاکر ، أى نمط من الرجال هو !!؟

رجل تحدى الألقاب والبرامج الدراسية الرسمية ، واعتزل الناس ، معتزلاً بفناء داره ، آبياً أن يأخذ فيما هم آخذون فيه ، بيد أنه تحدى الألقاب - فى زمن الألقاب وفى مصر ذات العراقة فى الكهانة - لتسعى إليه الألقاب ، وتحدى البرامج الدراسية ، ليكون هو نفسه برنامجاً ، تهفو إليه هاته البرامج ، واعتزل الناس ، ليحج إليه الهافون ثاوين إلى فيثه ، وليكون مأنوساً فى عزلته الاختيارية المأهولة !!

نمط من الرجال صعب ، غير ميسور تواتره ، فى زمن التوسط والتشابه ، وليست صعوبته من الضرب المدبب الشائك ، بل هى صعوبة الجحد ومرارته ، وأخذه نفسه ولزومها ما لايلزم ، دون تكلف وقطوب ، حيث إن مجلسه ليتسع ويتراحم للإحماض ، دون تدنٍ ودون انفراط وهزل .

هذا النمط الفكرى والنفسي حقيق أن يبين صدقه فى إبداعات صاحبه ودراساته ، فلا يفلت من شيات هذا الزى ، الذى هو إهابه المغزول من دمه وعصبه ، وأن يكون عنواناً له وعنواناً عليه ، فلا سبيل فيه إلى الانمياح ، ولذا لا يعتم المرء حين يطالع ثمرات قريحته إلا أن يمهرها باسمه دون تداخل ، وهى عسيّة ألا تقلد ؛ لأن تقليدها يكون شائهاً مردولاً ، ولأن «عملاقية» صاحبها شخصاً وفكراً تتأبى أن يحتجنها مقلد أحول الفكر ، ضرير القلم ، وتلك سمة أصالة ، صحيح أن الأستاذ شاکر يغرى بالاحتذاء ، بيد أن قامته صعبة ، تتقاصر دونها القامات ، فى محاولتها مضاهاته أو الاقتراب منه ، ولذا يكون من الصحيح كذلك أن يكون شاکر هو شاکر ، وإن حاولنا أن نرى فيه أمشاجاً من القدماء أو المحدثين كالرافعي ، ولكن هذه الأمشاج آضت فى تجاليد شاكريّة ، من آفة النظر

التوقف عندها ؛ لأن الرجل ينفق عن سعة ، وسعته هي كل ما ورثه عن سلفه العظيم .

أبو فهر يحتشد تماماً لكل ما يقرأ ويكتب ، واحتشاده من نوع خاص في تاريخ الأدب العربي ، حيث ترفده ثقافة وسيرة حصلها بنفسه ، ونظر عميق ، يتراحب في كل ما أثمره العقل العربي من الفقه والتفسير والحديث ، وأصول الدين ، وعلوم الرجال والتاريخ ، والأدب العربي شعره ونثره ، في إحاطة مذهلة ، ولذا ينبغي على كل من يقترب منه أن يحتشد بعض احتشاده ، وألا يكون مثوفاً بالهوى الذميم وضيق الأفق ، لكي يتدسس إلى مرامي القول ، وهي عصية ، وإلى مناحي فكرة ، وهي قصية ، ولعله بعد هاته المجاهدات الصابرة ينفذ إلى الكلام وصاحبه ، ولا يعنى ذلك أن الرجل يتعاضل أو يكلف الأشياء ضد طباعها ، بل إنه أمين لفكره وفكر أمته التي يعزى إليها ، ومن الأمانة المتوخاة أن يصدق في التعبير عن فكره وفكر أمته ، أما الذين في قلوبهم زيغ ، وفي عقولهم آفة ، وفي نظرهم زغل ، فالرجل ليس بسبيلهم ؛ لأنه لا يتملق فكرهم ، ولا يدغدغ شعورهم ، بل إن بعض هؤلاء لو أحسنوا استخدام نعمة الله عليهم ، لفاءوا إلى فكر الرجل ، ولوجدوا فيه ما يروى الصدى ، وينقع الغليل مع بذل الجهد الذي يفك مغالقة ، وينسف سدوداً .

ومن ارتكاس الأذواق ، ومسوخ السلائق أن نريغ من الرجل ورفصائه التنزل إلى الناس ، لأننا بذلك نشجع الجهل والحطة ، وواجب المفكر أن يرفع إليه الأذواق لا أن يتسفل بها ، والمضنون به على غير أهلهم يجب أن يتبوا مكاناً سامقاً ، حيث يتطلع إليه من لديه أثارة من همة ، ويشرب إليه من في قلبه جذوة من عزيمة ، تأبى الإخلاق إلى الاستكانة والخذلان ، ومن فضائل الأستاذ شاكر الكبرى أنه أبى هذا التنزل ، وأنه نفخ في تلك الجذوات ، فتطلعت إليه - في اختياله ومجادته - مختالة متمجدة ، عائدة من الخذلان .

ومحمود شاكر عقاب العربية ، أخلص لها الإخلاص كله ، واستوعب ذخائرها وأعلاقتها ، دون أن يشل فكره ونظره ذلك الاستيعاب ، محققاً وناقداً ومؤرخاً ، وشاعراً ، وله في كل ذلك إسهامات موفورة ، تشي بنظر لا يقف عن

الماضى وإن كان مجيداً ، ولذا يخطيء الناس حين يظنون أن «شاكراً» رجل تراثي بالمعنى الرديء للكلمة ، تحجرًا وانغلاقًا ، بل إنه - شخصاً وفكراً - يسبق خطوات زمنه ، دون أن يجتث جذوره ، حيث لا مجال للاجتثاث ، ولا يحسن أن يحدث ، رجل طلعة ، وإن بدا فى مسلاخ القدامى ، يفتح على كل التيارات التى تتماوج فى زمنه ، على المستوى الشخصى والفكرى ؛ حين يضم مجلسه كل الاتجاهات والتيارات المتناقضة ، وإن كان صبره ينفذ أمام «أطفال الجماعات الإسلامية» كما ينعتهم ؛ لأن الفكر الحر شارته وعنوانه الأول . وإن بدا هذا غريباً على بعض الأذان التى تصدق ما يشيع وإن كان يشيع فيه البلى والاضطراب ، غير أن البابة الكبرى التى نعرف منها محمود شاكراً هى بابة الأديب الشاعر ، ولولا هذه الملكة لما كان المحقق والناقد والمؤرخ بهذا المستوى من النفاذ ، وكأين من محققين ونقاد ومؤرخين لا تشتعل فى نفوسهم جذوة «الفن» ، فيخرج كلامهم غسلاً ، وعملهم أقرب وأوشج بعمل أهل الاختصاص ، أو بعمل بعض الجامعيين الخفاف ، الذين يظنون أنفسهم نقاداً ومحققين ، وهم دائماً بالصيد ، يمكن أن يجيدوا فى بعض الأعمال القريبة من «الصنعة» ، لكن باب الطبع - ولو اشتعل بجُدْيَةٍ صغيرة - يكون عسير الولوج .

ولعل كتابه «نمط صعب ونمط مخيف» ونشر منجماً قبل ذلك فى مجلة «المجلة» - نضر الله أيامها - ربما يكون شارة متميزة لملكة محمود شاكراً الشاعر والناقد والمحقق ، بل نزع - وليس الزعم مطية الكذب دائماً - أنه فى هذا الكتاب قدم «نظرية نقدية» فى قراءة الشعر وتذوقه ، وانفرد ببيان شافٍ عن قضية «الوحدة العضوية» وما أثير حولها - حديثاً - من لغط وغلط ، وقد تعرض لها شيخنا الأكبر عباس العقاد ، وغلا فيها غلواً شديداً ، وإن كان ارتأى معالمها جلية لدى شاعره الأثير ابن الرومى ، ونحن - مع إجلالنا للعقاد - لا نشاطه الرأى فى هذه الوحدة كما ارتأها ، بل ربما نراها أقرب إلى الوحدة الاحتمالية لا الحاسمة كما يريغها هو ، ونعتقد أننا أقرب إلى نظرية «أبو فهر» فى هذه المسألة ؛ حيث فرّق بين أزمنة الحدث والتغنى والنفس ، ولكل منها زمن ، يلتقى بعد تشعيب بأخيه ، فتحدث هذه الوحدة .

«ونمط صعب ونمط مخيف» ضرب من الكلام يعسر على غير الأستاذ شاعر ، بل إنه ليتلبسه في «كمال الاتصال» فلا يمهر إلا باسمه ، وهو سبع مقالات مطولة استغرقت أكثر من أربعمئة صفحة من القطع الكبير عن قصيدة واحدة نسبت خطأ لتأبط شرا ، دار الكلام فيها على كل مسائل التحقيق والعروض واللغة ، وتذوق الشعر ونقده ، ونقد السند والرجال ، وتمحيص الكتب والروايات وقضية الشعر الجاهلي عامة ، وترجمة الشعر .

وربما يخال القارئ أو يتوهم أن هذه مباحث افترعها الناس ، وأفاضوا في القول فيها ، بيد أن الخيال أو الوهم سرعان ما يرتد حسيماً حين يطالع هذه الصفحات في معالجتها الصابرة الشديدة العمق ؛ ليصل مع المؤلف إلى استظهار نسبة هذه القصيدة إلى ابن أخت تأبط شرا ، من خلال تقص هائل للكتب القديمة ورواياتها ، ومسائل الجرح والتعديل ، وبخاصة حين تعرض للقطفى وروايته فجرحها ، ونكأ عند المؤلف جرحاً قديماً حين عالج غرائب القطفى في روايته عن دير الفاروس ودرس أبي العلاء فيه ، وذكره بأشجار الدردار في كمبردج ، وتقف من خلال هذه المناقشة المستوعبة على كلام جيد محكم عن الفروق بين الشعر المصنوع والمنحول ، وهى قضية تلوم فيها أبو فهر طويلاً فى مواطن أخر ؛ لأنها كانت قضية العصر ، وقضية أمة يراد العبث بشعرها وبتاريخها ، ومع هذا النقد التاريخى تدسس المؤلف من ثنايا القصيدة إلى استظهار نسبتها إلى ابن أخت تأبط شرا ، مما يعرف بالنقد الداخلى ، وللمؤلف باع هائل فى تذوق الشعر على طريقته هو ، وربما ينفرد بها انفراداً خالصاً فى تاريخنا الحديث ، إلى جانب فئة قليلة تشاركه هذا الانفراد .

هذه القصيدة تعرف «باللامية» وأولها :

إن بالشعب الذى دون سلع لقتيلا دمه ما يطل

وقد تلوم الأستاذ شاعر لدى بحرهما ، وهو المديد الأول «فاعلاتن فاعلن فاعلاتن» مع ما يداخله من زحافات ، وناقش سر تسميته بالنمط الصعب لدى القدماء ، ولدى عبد الله الطيب من المحدثين ، وارتأى المؤلف أن للوتد فعلاً فى تلك الصعوبة وأن موقعه فى التفعيله الأولى والثالثة فى الوسط ، وفى الثانية فى

الطرف ، يقف وراء كثير من تلك الصعوبات ، والتي تقتضى مهياً من الكلام يناقض الكلام فى وزن آخر ، وربما كان كلامه فى هذه الزحافات ومكان الأوتاد ، ومناسبة البحر للغرض الشعرى من أدق ما قرأنا فى النقد الحديث . واستطرد المؤلف إلى حديث طويل فى الدوائر العروضية وهو حديث شائك ، ينبئ عن مقدرة هائلة فى الفهم والتذوق ، والتفسير والتعليل ، وارتأى نطاً آخر من الوزن لضبط هذا البحر ، وهو «فاعلن مستفعلن فاعلا . . تن» ليكون الوند «علن» فى الطرف ، تخلصاً من دورانه بين الطرف والوسط فى وزن الخليل ، مع «ترفيل» يلحق التفعيلة الثالثة «فاعلن . . تن» أو «فاعلن تن» .

لا ريب أنه اجتهاد ترفده دربة وشجاعة محمودة من الأستاذ شاعر أن يستدرك على القدامى - مع تجلته لهم - وقد صنع هذا الصنيع فى تفسير بعض الكلمات فى القصيدة ، المؤدى إلى فهم المعنى على غير ما فهمه القدامى ، وكان أبو فهر شديد الإحماض حين علق على أبى العلاء والمرزوقى والتبريزى ، ورأى فى كلام الأخير برودة وسخفاً ، ربما كان - كما قال منظرًا - مستمدًا من طبيعة «تبريز» المعروفة ببردها الشديد !! .

بيد أن اجتهاده فى الوزن لا ينهض بما يريد الوصول إليه ؛ لأننا نحتاج إلى تأويل فى اجتهاده ، وأولى من التأويل عدم الحاجة إليه ، ولأن «الترفيل» شىء افتراضى لا يسنده الواقع «فاعلن + تن» هى «فاعلاتن» والوند هنا فى الوسط ، وما قبله فى الطرف ، فنحن نفر إلى ما أرغنا الفرار منه ، ولأن ثمة بحوراً أو بالتحديد ضرورياً من البحور ، تضارب فيها موقع الوند ، ولم تنعت بأنها نط صعب ، وأبرز مثال على ذلك هو «مخلع البسيط» وهو فى رأينا بحر قائم بذاته ، وليس جزءاً أو صورة من البسيط ، وتفعيلاته «مستفعلن فاعلن فعولن» فالوند فى الطرف فى التفعيلة الأولى والثانية وفى الثالثة فى أولها ، وفى الرجز فى إحدى صورة «مستفعلن مستفعلن فعولن» حين يدخله مثل هذا الزحاف ، وهو كثير قديماً وحديثاً ، والرجز حمار الشعراء فى القديم والحديث الآن ، بل إنه صار أشد الحمير بؤساً فى الشعر الحر ، ولأن الزحافات تغير كثيراً من موقع الوند فى كثير من بحور الشعر لا نستطرد إليها الآن ، وهى مهمة لأنها تنفى عن الوزن ما

يمكن أن يسمى «رتوباً» لو كانت التفاعيل تامة غير مزاحفة ، والشعر العربي فى نماذجه العليا مدين للزحافات ، وتاريخ إجاداته ، وتاريخ زحافاتة .

والأستاذ شاكراً فى إلماحة جيدة ، يذكر أن التفاعيل مفردة لا تؤدى نغماً ، وقد كرر ذلك مرتين ، مومئاً فى إبانة إلى فساد النظام الذى يقوم عليه الشعر الحر «التفعيلة» ، لأن الشعر يأتى من «نسق خاص» تاتى عليه التفاعيل فتؤدى نغماً يمكن وحده أن يسمى شعراً ، وما يخرج عن ذلك فهو أبق يمكن أن يسمى شيئاً آخر غير الشعر ، الذى يعزى إلى أدب هذه الأمة ، ولا يعنى أن الأستاذ شاكراً يغلق باب الإبداع ؛ لأن النظم على وزن مخترع لا يقدر فى كونه شعراً ، كما يقول الزمخشري وكما تقول الفطر السوية ، بشرط أن نثول فيه إلى نظام وقاعدة يحتملان التصويب والتخطئة ، وإلا فإن الفساد والخلل يتفشيان ويصبحان قاعدة ويثول غير النظام نظاماً .

وثمة إشارة أخرى إلى ضرورة النغم والإيقاع ، ألمح إليها خطفًا ، وهى تزلزل ما تقوم به دعوى ما يسمى «قصيدة النثر» وهى من البداهة إلا لدى من لا يعرفون البداهة!! .

ومع أن مساوقة الوزن لمعاني الشعر لا تزال دائرة فى محيط الفرض والاحتمال ، وأن كلاماً معيناً يصب فى وزن معين ليس ضربة لازب ، فإن «أبو فهر» استطاع أن يقيم علاقة حميمة بين هذا النمط الصعب المخيف وغرض الكلام القائم على التذكر ؛ مما يجعل القارئ يهتف بالموافقة ، بيد أن هذا مطلب قصى لا يستطيعه إلا فذاذة الأستاذ شاكراً ، وتذوقه لمستسر النغم السارى فى تجاليد الكلام ، وشيء كثير من مثل هذا سرى فى ثنيات شرحه للقصيدة ، وفى وقوفه على خبء الوحدة التى لهج بها المحدثون ، وألمح إليها القدامى ، وارتأها وحدة ذات شعب حسب تشعيث الأزمنة - كما أشرنا آنفاً - وقد راض المؤلف هذا البحث رياضة جيدة ناهضة ، فوجد سريان الوحدة - فى نوع منها - فى حنايا القصيدة دون انفعال ودون تزييد .

لم يقف الأستاذ شاكراً على لزوم ما لا يلزم فى القصيدة ، ومن المؤكد أنه كان سيرى فيها ما لانرى حين يعالج اللزوميات ، وأنها قديمة فى الكلام العربى لا

نقف بها عند كثير عزة - فى تائته الملتزم فيها اللام قبلها - لأن قصيدة جاهلية التزم فيها قائلها تضعيف اللام فى القافية ، لا ريب أن لهذا فعلاً فى النغم والأداء ، وأنه ليس فضلة لا فى الموسيقى ولا فى المعنى ، بل يمثل إضافة إليهما ، لو أن الأستاذ شاعر أراق على هذه المسألة فيضاً أو حتى وشلاً من فكره وتذوقه لرأينا شيئاً عجباً .

والحق أننى فاتحت الأستاذ شاعر - برّد الله مضجعه - فى هذه القضية ، وكان رحمة الله عليه يهتم بما أكتب فى العروض - لا أقول ذلك بأوّ وإن كان وادراً خاصة إذا كان الاهتمام من مثله - فلم أظفر منه برد كلامى ، وإنما لمحت فى عينيه نظرة العقاب الهرم الآسية على أن شيئاً مهماً فاتته ، فلم ألحف عليه فى الكلام ، وكثيراً ما كان يستقبل مناقشأتى بصدر متراحب ، وربما كان يسخر متعاطفاً من حماسى .

واختتم الكتاب برد مفحم على ترجمة لترجمة جوته لهذه القصيدة إلى العربية وكانت الباعث وراء هذه المقالات كلها ، فضلاً عن نقد ليحيى حقى الذى خانقه بود ، ووده بخناق . انتقد أبو فهر هذه الترجمة وأبان عوارها ، وهى فى الحقيقة شىء مهلهل لا صلة له بالعربية ، وحسبنا أن الترجمة جعلت للجمال حوافر ، وأن هذه الحوافر تتحطم ، والترجمة بالنص : «ألقوه فى مناخ غليظ ، على صخر وعر ، تقف فوقه الجمال فتتحطم حوافرها» وهو كلام يدابر العربية ، ويدابر الفكر الصحيح ، ورد الأستاذ شاعر من النمط العالى المفعم سخرية وتهكماً ، ولكن فى أدب رفيع ، لا يزال يذكره قراء «المجلة» ، وغير معروف على وجه الشيعون أن شاكراً من المتمكنين فى اللغة الإنجليزية ، ولا يزال المخضرمون يذكرون له ترجمات «المختار» ، وإن كان قد صدف عن هذا النشاط منذ أمد .

هذا كلام يسير عن محمود شاعر ، الذى لم يفهمه الناس على حقيقته ، ولو عادت الأمة إلى وجهها السوى لعادت بوجه محمود شاعر - الوجه الأصيل المجدد- حين تزدهم الوجوه .

## مداخل إعجاز القرآن للأستاذ محمود شاكر

هما مدخلان فقط في هذا الكتاب الصادر عن مطبعة المدني في سنة ٢٠٠٢ - ١٤٢٣ ، والمدخل الثالث ضمه كتاب آخر بعنوان «قضية الشعر الجاهلي . في كتاب ابن سلام» ، وصدر عن المطبعة السابقة سنة ١٩٩٧ - ١٤١٨ ، وبين أن الكتاب الثاني شديد الأصره بالكتاب الأول ، لدى مؤلفه ولدى قارئه ، ولو أنسى للعلامة الجليل أبي فهر محمود محمد شاكر في أجله ، لجعل الكتابين واحداً ، بيد أن الأجل قد حم ، فاجتهد من قدم الكتابين ، في هذا الفصل ، وإن كان القران بينهما أبيين من أن يدل عليه .

الكتاب الذي نحن بصدده - وإن كنا سنخرج سريعاً على الثاني - مبحث رائد في باب ، أزع - وليس الزعم هنا مطية الكذب - أنني لم أر رصيفاً له في لغة العرب قديماً وحديثاً ؛ حيث يجد قارئه اجتهاداً في النظر والتحليل ، والإحاطة المذهلة ما تفتقر إليه مثل هذه المباحث على تنوعها وتعددتها ، ومآل ذلك أن الأستاذ «شاكر» كتب كتابه أوان استحصاد قدراته ، وتمكنه الهائل من «التدوق» الذي يكاد ينفرد به بين أهل عصره ، بما فيهم أستاذه مصطفى صادق الرافعي ، الذي يكن له إعجاباً لا نشاطه إياه .

درس الأستاذ شاكر مسألة الإعجاز هذه دراسة تاريخية ، وإن كان قد ألم ببعض وجوه الإعجاز ، دون أن يوليها الكفل الأعظم من همه لأنها - هنا - ليست القضية الرئيسة .

حدد أولاً المعنى اللغوي لكلمة آية ، لأنها وردت تاريخياً سابقة ، مقارناً بين آية النبي محمد صلى الله عليه وسلم وآيات الرسل من قبله ، وكيف أن هذه الآيات مقترنة بأصحابها وبمن شاهدها من الجيل المصاحب لهم دون أن تكون ملزمة ، ومن ثم ينشأ العجز وانقطاع القوة وعدم الإطاقة ، وهنا يسلم الناس

تسليماً لا تردد فيه أن هذه الآية دليل نبوة بشر مثلهم، ولرجل من أنفسهم، نشأ فيهم صغيراً إلى أن كبر فادعى ما ادعى من النبوة ، لا يسلمون تسليماً حتى ينقطع شكهم بيقين فاصل . ، أن الذى يشهدونه من صاحبهم خارج عن طوق جميعهم ثم عن طوق جميع الخلائق ، وخارج أيضاً عن طوق صاحبهم الذى نشأ بينهم إلى أن ادعى ما ادعى من النبوة . والذى آتاه هذه الآية أو هذه المعجزة هو الذى لا يعجزه شيء ، هو الخالق البارئ ، هو الله رب العالمين .

أما معجزة محمد - صلى الله عليه وسلم - فهي باقية خالدة ؛ لأنها لم تتعلق بحادثة طارئة كإحياء الموتى وإبراء الأكمّة ، وانقلاب العصا حية تسعى ، بل هي منوطة بالإنسان حيث كان ، وهذا ما صرح به القرآن الكريم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (العنكبوت ٥٠) .

وقد جاهد وجهد الأستاذ شاکر فى تحليل المعنى اللغوى ؛ حيث هو الأساس الذى تفرعت منه المعانى الأخرى من المجاز ، وتعانقت الكلمتان «إعجاز القرآن» و«معجزات الأنبياء» لدى الكتاب المحدثين ؛ حيث يرى أبو فهر أن كليهما لفظ محدث مولد ، وبيقين قاطع لا نجدهما فى كتاب الله ولا فى حديث رسول الله ، ولا فى شيء من كلام التابعين ومن بعدهم حتى انقضى قرنان ، فإذا بنا نجدهما فجأة لدى كلام أهل القرن الثالث ، ويسيران بكثرة لدى أهل القرن الرابع وما بعده إلى يوم الناس هذا ، وارتبط بلفظ الإعجاز لفظ آخر هو «التحدى» ومر عليه من الندرة والشيوع ما مر على اللفظ الأول ، حتى ظهر على استحياء فى كتابات الجاحظ ، ولاسيما فى رسالته «حجج النبوة» فهو يجمع به مع شدة حاجته إليه يقول : لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة ، لتبين له فى نظامها ومخرجها وفى لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها» ، ومع اقتران اللفظين التحدى والعجز فإن الجاحظ لم يقل «إعجاز القرآن» ، وكانت منه على طرف الشام .

وقد تتبع الأستاذ شاکر تاريخ هذا اللفظ لدى شيوخ المعتزلة - ومنهم الجاحظ - وتناول كلامهم بشيء غير قليل من اللداعة ، فهم أهل كلام وتشقيق ، ومثل هذا

النعته يخرج كثيرين منهم عن نطاق التذوق وبيان وجوه الإعجاز ، وعرض أبو فهر لكثير من آرائهم وبيّن فسادها ، وما جرت إليه من محن ، حيث ولجوا هذه البابة من نافذة «الإلهيات والنبوات» ، وفسروا عجز الخلائق عن مجازة القرآن بترك المعارضة أو بما يسمى «الصرفة» ، وهى لم تقنع أحداً ، فضلاً عن شيوخ المعتزلة أهل الرأى والنظر والاستدلال ، وفرق أبو فهر بين العجز والإبلاس ، ولعل شيخنا قد وقع فى شىء غير قليل من الحيرة والخشية من ولوج هذه البابة المحفوفة بكثير من المخاطر ، كما أشار هو نفسه ، ولكنه مضى إلى غاية الشوط التاريخى ، متقصياً ومبحراً فى تيه طفق يتبلج قليلاً قليلاً ، حتى رأى أن الجاحظ لم يطق الاعتقاد بالصرفة ، التى مبعثها هياج الطبائع المفطورة على إلف الجدل والمغالطة وحب الظهور على الخصوم ، كما حدث مع أبى الهذيل العلاف وابن أخته أبى إسحاق النظام .

ويشهد المرء أن كلام المعتزلة على فجاجته فى هذه القضية دالٌّ على أنهم جبابرة العقول والجدل ، حتى ولو كان على سبيل المغالطة التى تقتضيها الحيرة والإبلاس ؛ لأنهم يخرجون أو يحاولون الخروج من المأزق بأى طريق .

كما أن مناقشة الأستاذ «شاكر» لهم تشهد بأنه قريع لهم فضلاً عن «تذوقه» القليل المثال ، وقد بين أن الجاحظ بعد فزعه من هذه اللفظة «الصرفة» حاول أن يحوم حول هذه القضية لديه ، مدللاً بكلمات قلائل على وجه من الإعجاز ، مثل قوله : (نظم القرآن ، وبديع تركيبه ، وغريب تأليفه) . . . (وطبع القرآن ، ومخارج آياته ، وحسن بيانه ، وجمع المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة) . . . (والقرآن كتابنا المنزل ؛ الذى يدلنا على أنه صدق نظمه البديع ؛ الذى لا يقدر على مثله العباد) . . . (ولو تحدى أبلغ العرب بأقصر سورة منه لتبين فى نظامها ومخرجها ولفظها وطبعها أنه عاجز عنها) ، وهذه عبارة واضحة كل الوضوح تدفع القول «بالصرفة» مع أن الجاحظ لم يذكر عبارة «بلاغة القرآن» .

وأول من أطلق لفظ «إعجاز القرآن» هو عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتكلم المعتزلى ت ٣٠٦ ، فقد ألّف كتاباً عنوانه «إعجاز القرآن» ، واستخدم معها معجزة النبى ومعجزات الأنبياء ، وفشت هذه الألفاظ بعد الواسطى فى كل

الكتابات العاقبة حتى يوم الناس هذا ، وجاء بعده كتاب الرماني «نكت في إعجاز القرآن» ذكر فيه وجوه الإعجاز من جهة البلاغة ، ومن العسير تتبع هذا اللفظ في كتابات العلماء من بعده ، ولكننا نذكر «الباقلاني» شيخ السنة ولسان الأمة ، وهو صاحب ذوق أدبي رفيع ، وإن كان قد جرته المجادلة إلى أن يبين عوار الكلام الإنساني بجانب الكلام الإلهي ، لأن المقارنة أو الموازنة باطلة أساساً ، لأن كلام الله مبين مباينة تامة لكلام الخلائق وإن كان في طبقة معلقة امرئ القيس ، التي أخذ الباقلاني يفتشها باحثاً عن أوجه القصور فيها ، وأكل هذا البحث كثيراً من جهده ، وإن أبان عن بيان الباقلاني وحسن تأنيه للكلام ، والتدسس إلى فضائله ومثالبه ، وقد غاضت هذه المائتة من البيان لدى القاضي عبد الجبار ؛ لأنه سلك طريق أهل الكلام . وأسلوبهم يعلوه صداً كثير يجلب من الضرر أكثر مما يجلب من النفع ، ولاسيما فيما يتعلق بأداب اللسان وتذوق النفوس ، إلى أن جاء عبد القاهر الجرجاني الفقيه الشافعي ، والمتكلم على مذهب الأشعرى ت ٤٧١ هـ ، وهو أعرف من أن يعرف ، كانت تشغله قضية «إعجاز القرآن» ، واستوعب كل ما قاله السالفون عليه ، ووقف ملياً لدى ألفاظ الجاحظ الموحية ، وكذلك ألفاظ الباقلاني ، وكتب كتابه «دلائل الإعجاز» «أسرار البلاغة» وفيهما كلام نفيس عن البلاغة والفصاحة ووجوه الإعجاز ، وكشف عن نظرية النظم ، وهو إمام وحده ، ومن جاء بعده عيال عليه حتى الآن ، وقد لبسوا طيلسانه ، وتخفوا فيه ، وإن أنكروا ذلك كله أو بعضه ، لكنهم مكشوفون في كل حال ، ويحسن أن نورد عبارة دالة للجرجاني ، حيث يقول :

«ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى الفصاحة والبلاغة ، والبيان والبراعة وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وفي تفسير المراد بها ، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء والإشارة في خفاء ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيء ليطلب وموضع الدفين ليبحث عنه فيخرج . . . ووجدت المعول على أن هنا نظماً وترتيباً وتأليفاً وتركيباً ، وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً» .

ورجع الأستاذ شاكر هذه الألفاظ الثمانية إلى ما تومىء إليه في كلام السالفين ، وما يضيفه الإمام عبد القاهر حين يطبقها ، وحين يفسرها التفسير الواضح المبين ،

ولم يكن ليتم له ذلك لولا جبلته المفطور عليها في تذوق البيان ، وما اكتسبه من طرائق الكلام لدى فحولة الشعراء ، لكن هذا كله - كما أحس الأستاذ شاعر وكما أحسست أنا - لا يزال إشكالاً أحيل إلى إبهام . وأن الوقوف على وجوه الإعجاز القرآني مما لا يتأتى كله بحال ، وإن بدا منه شفيف لدى الوجدان المصقول ؛ حيث تنقطع الأطماع ، وتحسر الظنون ، وتسقط القوى ، وتستوى الأقدام في العجز ، وكلها صفات قرت في نفس عبد القاهر وشاكر ومن يشاطرهما تلك النعوت .

ثم يختم الأستاذ شاعر هذا المدخل بنفثة مصدر ، سببها ثرثرة أهل زماننا الذين لا يملكون إلا الدعاوى الفارغة ، ممن يهونون من شأن البلاغة ، وهي بابتهم إلى فهم أسرار القرآن ؛ لأنهم قتلة للبيان الذي شرف به الإنسان ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الأنبياء ١٠) .

وإذا كان الإمام عبد القاهر لم ينته إلى استيفاء الكلام مع قدرته عليه ، فإن في الأستاذ شاعر قرباً منه في هذه الخلة ، فكأين من مقالة لم يتمها مع قدرته على التمام ، وتلك جبلة لا ينتزع منها المرء نفسه إلا بشيء غير قليل من عدم إطاعة النفس .

وهذا المبحث عاجلت المنية شيخنا عن إتمامه ، لكنه قد تحدث في المبحث الثاني عن كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبي ، تناول فيه ما يراد بهذه الأمة ، من معارك السلاح والثقافة ، ثم ناقش المؤلف آراء مالك بن نبي في قضية «الشعر الجاهلي» ، وهي قضية القضايا في فكر الأستاذ شاعر ، وأم مباحثه ، وخالف مالك بن نبي في نتائجه حين قرن الشك في الشعر الجاهلي بقضية تفسير القرآن ، مرتبياً أنهما ليسا من بابة واحدة ، لايمسه شك مرجليوث ولا غيره ممن أخذ طريقتة ، وأن مدار الأمر كله على أن الشعر الجاهلي أحد الأدلة الكبرى على إعجاز القرآن ، كما ذكر الأستاذ شاعر في كتابه «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام» ، وخلص إلى أن القرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة ، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن .

وقد استحضر أبو فهر في قضية الشعر الجاهلي المحنة القاصفة التي اعتورت أهل الجاهلية حين سمعوا القرآن ، وقد امتحنوا بها دون غيرهم من البشر ، وهم أهل بيان وتذوق يكادون ينفردون به عن أصحاب الألسنة ، لكنهم خرجوا من هذه المحنة بشهادة جازمة بحسن بيانهم وتذوقهم العميق لأسرار الكلام ؛ ولذا كانوا أهلاً لأن يسمعوا القرآن ، وأن يقوم به رجل منهم ، وأن تكون معجزته باقية بقاء الناس وأن يشهد له الإنس والجن مقرين بالعجز ﴿ قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾ (الإسراء ٨٨) .

ومن ثم كان شعرهم الذي هو مجلى بيانهم سبيلهم إلى تذوق القرآن الكريم واعترافهم بمبايسته لكلام البشر ، وخلص الأستاذ شاعر إلى حقيقة أدبية عالية ، حيث ارتأى أن الشعر الجاهلي والشعر في صدر الإسلام كان في الذروة من البيان والبلاغة ، وأن نزول القرآن لم يطمس هذه الإجادة الغالية في شعر صدر الإسلام بل ظل الشعر على روعته وأسرته ، وأخذه بمجامع القلوب ، وكان سبيل الناس إلى تذوق القرآن الكريم

وأخذ الأستاذ شاعر يشرح معنى «التذوق» لأنه اعتورها كلام كثير من ثرثرة القوم ، فكل من خط كلاماً يتحدث عن التذوق ، وكل من عرف حروف الهجاء في النقد يلفظ بالتذوق ، وهو في الحقيقة عمل مضمّن لا يتيسر إلا لأفذاذ من الناس في صدارتهم أبو فهر ، ويحسن أن نورد كلمته في هذا «وقد ابتليت أنا بمحنة الشعر الجاهلي عندما ذر قرن الفسنة أيام كنت طالباً في الجامعة ، ودارت بي الأيام حتى انتهيت إلى ضرب آخر من الاستدلال على صحة الشعر الجاهلي . لا عن طريق روايته فحسب ، بل عن طريق أخرى هي ألصق بأمر «إعجاز القرآن» ، فإنني محصت ما محصت من الشعر الجاهلي حتى وجدته يحمل هو نفسه في نفسه أدلة صحته وثبوتة ؛ إذ تبينت فيه قدرة خارقة على «البيان» وتكشف لى عن روائع كثيرة لا تحد . . . وهذا الانفراد المطلق ولا سيما انفراده بخصائصه عن كل شعر بعده من شعر العرب أنفسهم ، هو وحده دليل كاف على صحته وثبوتة» .

والبابة إلى هذا اليقين الشاكرى هو تذوق الكاتب نفسه ، وقارئه محتاج إلى قسط من هذا التذوق ؛ إذا أخذ الأمر مأخذ الجد لا الثرثرة ولا التخليط - ليكسب مثل هذا اليقين ، وما هو ببعيد . . لكنه فى حاجة إلى إنضاء الرواحل حتى بلوغ المقصد .

انفرد الأستاذ شاكراً بهذا الدليل الذى اهتدى إليه بعد معالجة عسيرة فى مجاهل الشعر الجاهلى ، وقد نفذ منها إلى قضية الإعجاز ، حيث هما قضية متشابهة الأغصان والفروع ، ولم يقف عند الكتب الكثيرة التى ردت على دعاوى الانتحال، وإن أفاد منها ، لكنها فقط كانت ظهارته .

وينبغى أن نذكر هنا - وفى غير هنا - أن لغة شاكراً مفردة فى بابها ، وإن كانت فيها أثارة من كلام سابق ، ولكنها أثارة لا تنفى أصالة صاحبها بل تزيدها كما تزيد المرأة النور نوراً ، ونحس حين قراءتها بشيء من الزهو غير قليل ، حيث تبلغ معه اللغة أقصى طاقاتها روعة وبياناً ، وهى بهذه المثابة كفاء لهذه المباحث الشريفة . وأشرفها «إعجاز القرآن ، وبلاغة القرآن» .

## «أبوفهر: بين الدرس الأدبي والتحقيق»

أبو فهر عانى العربية تفسيراً وحديثاً وفقهاً ، وأدباً وتاريخاً ، ولغة ، وفكراً ، ووجد حياته كلها لها ، فأفضت إليه بمكنونها ، وزهد فيما سواها ، فأقبلت عليه ، وصدف عن الجامعة فخطبت وده ، ونأى عن الشهرة ، فحظى بأفضل منها وهو التقدير ، ومعاناته هذه لاتزال ، ولذا يعسر على من يقترب من فكره أن يكتشفه ، وينفذ إلى جوهره إلا بمثل معاناة الشيخ نفسه ، أو بما يقاربها على الأقل ولهذا كنت مشفقاً على الدكتور محمود إبراهيم الرضوانى مؤلف هذا الكتاب النفيس من اقتحام هذه المجاهل المستسرة ، والأغوار البعيدة التى تسمى محمود شاعر ، بيد أن إشفاقي ما لبث أن غدا إعجاباً بذلك السفر الضخم ، الذى كابده المؤلف حرفاً حرفاً ، وعاشر الأستاذ شخصاً وآثاراً ، وكان موضوع الباحث فى رسالته للماجستير .

ومحمود شاعر رجل بعيد الرضا ، يذكرنى بابن حزم القرطبي فى مضاء فكره ، وحدة لسانه كسيف الحجاج ، غير أنى أشهد أن حدثه كانت فى موضعها ، ومفصلة على قد الموقف ، أى كانت موضوعية لأن الناقد أحياناً عليه أن يحمل عصا التأديب فى بعض المواطن التى لا تجدى فيها عبارات مائية يطلقون عليها «موضوعية» ملقاً وبهتاناً ، غير أن الحدة - وهى تعدى - لم تعد الباحث ولم تتسرب إلى قلمه ، مع أنه فى حدة الشباب ، وهو يغرى بها ، فتناول آراء الأستاذ، وآراء خصومه - وما أكثرهم - بكثير من الهدوء وأكاد أقول الرقة ، مناقشا إياها فى صبر وحماسة محسوبة ، ربما كانت «الماجستير» وراء شىء من هذا، لا أفتأ يساورنى العجب من الباحث - وهو من الصعيد - أن يكون بمثل هذه الوداعة المطمئنة .

تناول الباحث فى التمهيد حياة محمود شاعر فى وجازة وخطوط عامة ، ثم درس فى الفصل الأول قضية «التذوق والمنهج» وحلل مصطلح التذوق عند شاعر

ومدى عسره ، ويكاد لا ينطبق إلا على محمود شاعر ، لأنه اهتدى إليه بعد رحلة نفسية عاصفة في بداية حياته بالجامعة ولقائه ببطه حسين ، ثم عرض في الفصل الثانى لقضية «السيرة الفنية» عند شاعر وكتابه عن المتنبي ، وفى الفصل الثالث عرض لمسائل كثيرة فى النقد الشعري ، وفى الرابع تناول قضايا اللغة والأدب عند محمود شاعر ، وفى الفصل الأخير تحدث عن منهج أبى فهر فى تحقيق التراث ، والفصول كلها تتمتع بسلامة العرض والنظر ، ودقة التناول وأمانته ، وإن كنت اختلف مع الباحث فى بعض القضايا كموقف الأستاذ شاعر من معركة وحى الأربعين ، الذى وافقه الباحث ، وكموقفه المتشدد من الأعاجم ، ويعلم الأستاذ شاعر أننى لا أدين هؤلاء جملة ، ولا أقبلهم جملة ، وإن كنت أكره أن نكون ذيولاً لهم ، وهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، فلنقف عند عملهم الصالح ، وهو جيد وكثير .

افتقدت فى هذا الكتاب القيمّ فصلاً صغيراً عن محمود شاعر شاعراً ، وأراه من الأهمية بكان ، فالشاعرية هى مفتاح شخصية شاعر ، ولولا جرثومتها ما رأينا له منهجه هذا فى التذوق الذى يكاد ينفرد به ، وفى الكتاب عرض جيد وتسجيل لفكر أبى فهر النقدى والأدبى ، إلا أنه غلب على جانب النقد الذى كنت أنتظره من الباحث ، وأعتقد أن البحث فى شخصية كمحمود شاعر عسير وصعب ، وفتنة الباحث - أى باحث منصف - به شديدة ، والتفلت منها صعب ، لذا غلب- فيما أعتقد - جانب العرض والتسجيل على جانب النقد ، ومع ذلك فالجهد محمود عن محمود شاعر ، ومن محمود الرضوانى .

## اعصفي يارياح

أبو فهر محمود شاكر ، حجة ناهضة على تواصل الخيط الذهبي للشعر الأصيل في أصلاب هذه الأمة ، وخسارة فادحة أن يعرفه الناس محققا وعالما بالعربية شعرها ونثرها وأن تتأخر هذه المعرفة به شاعراً ، وهو مسئول عن حجب شعره ، وإن كان قد نشر قصيدته المطولة «القسوس العذراء» ، ولم تصب ذيوغاً كبيراً باستثناء دراسات قليلة متخصصة ، لكن حجب شعره لم يحجب شاعريته التي تتسرب في أعراق كلامه ، تذوقاً ونفاذاً وكتابة وطريقة حياة ، حيث كنت ألمح في معارف وجهه ، وبدوات حياته سرائر الشاعر وقسماته النفسية ، وحسن أن تتم ملامح الصورة ، أو تكون في طريقها إلى التمام بنشر هذه المجموعة من القصائد، جمعها وحققها ولده الدكتور فهر ، وقدم لها دارساً ومحللاً وناقداً الدكتور عادل سليمان المحقق والكاتب ، والأستاذ الجامعي وقد بسط مقدمته بسطاً شافياً ، حلل فيه القصائد واتجاه الشاعر ، مقارنة بينه وبين بعض قرنائهم واعتذر أنه وقف في مقدمته فحسب لدى المضمون ، واعدأ أن يستوفي الكلام عن الأداء الفني في دراسة مستقلة ؛ خاصة بعد أن طالت هذه المقدمة إلى ١٣٦ صفحة ، ولعلها أطول مقدمة عرفناها لديوان في العصر الحديث ، وقد قدم عادل سليمان شرحاً لبعض المفردات الصعبة ، مجتهداً في الفهم ، مرتباً للقصائد تاريخياً ، كما صنع أبو فهر في دراسته عن المتنبي ، راسماً له عمود الصورة .

وبدايات القصائد كتبت سنة ١٩٢٦ ، والشاعر في السابعة عشرة ، وهي سن لا ينضج فيها الناس مثل هذا النضج الذي نلمحه لدى الشاعر ، في التجارب والتعبير ، حقيقة تعكس التجارب تمرداً وحيرة قلقه ، وحزنًا لاعجاً ، مما يناسب سن الفتوة أو الصبا ، لكن يوازي هذا الخط الفرع العام بالحياة ، والكبرياء الباذخة في الحب ، وكلا اللونين صادق في الوشاية عن وجدان الشاعر الذي وقف الناس على عقله وفكره ، وظل وجدانه في كثيف من الحجب ، التي غزلها الشاعر حول نفسه .

«عصفى يارياح» عنوان الديوان وقصيدة فيه ، تصلح قصيدته أن تكون عنواناً لكل شعر محمود شاعر حتى في الدواوين المخطوطة التي تعد للطبع الآن ، فالعاصفة ترمد على الآسن الراكد في كل حياتنا ، تهدم لتبنى ، ولعل القصيدة ترسم في الوقت ذاته العاصفة المسماة محمود شاعر ، التي لم تهدأ قط حتى آخر أنفاسها ، وكان فيها العقاب الهرم ، لكنه العقاب على كل حال ، وهذه العاصفة تقف وراء قصائده «من ديوان البغضاء» ولعل البغضاء هنا الوجه الآخر للحب والتعلق ، لأن الشاعر يدخل المعركة منشقاً على ذاته ، مستجيباً للطبيعة الإنسانية بين آدم وحواء .

في الديوان أداء عال جداً ، في القصائد ذوات القافية الموحدة ، وفي التنوعات الموسيقية الأخرى والشاعر لاعب ماهر ، حاذق ، يصوغ لغته صياغة فيها إثارة من قديم في ثوب جديد ، ربما تلمح فيه أثراً من ابن الرومي في بانيته عن الأسفار ، أو طينياً من المتنبي ، أو حفيفاً من غابة الشعر الجاهلي ، أو شوقي ، لكن امتلاكه للكلام لا يهتز بهذه التأثيرات ، التي تكون أحياناً حسنة من حسنات الشاعر المقتدر خاصة إذا لم تكثر ، والكلام من الكلام كما يقول القدامى . يعجب المرء حين يستمع إلى بعض المتعجلين واصفين محمود شاعر بالتقليدية والسلفية ، دون أن يدركوا أن شعره ينقض كلامهم تماماً ، فالرجل تتجاوب في نفسه أصداء التجديد كما رآها عند جماعة الديوان وغيرهم ، ولعل فهمه لمفهوم الشعر ونقده عند العقاد من أدق ما نعرف وقد طبقه على شعره ، أو استجاب له طبعه على الأقل لأنه هداه إلى نفسه ولأصالة الشاعر من ناحية أخرى ، وربما كانت قصيدته عن «الشجرة ناسكة الصحراء» فيها أثر من «توماس هاردي» بترجمة العقاد ، وربما يكون شاعر قد قرأها في نصها الأصلي ، وفي الديوان شواهد على ترجمته للشعر ترجمة شعرية راقية ، ووقع على (هاردي) سيد قطب ، وحمزة شحاتة ومحمود حسن إسماعيل ، والقصائد تغرى بموازنة جيدة بين هؤلاء الشعراء ، وتمتاز قصيدة شاعر بالإتقان وإحكام العبارة إلى درجة ربما لم تيسر لأقرانه ، مع حفاظه على قسماته هو ، وقد عزف الشاعر وهو في طراءة الصبا على أنغام الشعر العربي في إجادة تحمد له ، كما تحمد للوزن في الوقت ذاته .

محمود شاكر وجه الشاعر فيه وجهه الأول ، وإن تخفى ، وهو من المجددين ،  
ولعل عاصفته تجرف وجوهاً صفيقة يلعتها الشعر فى أفقه العالى المبين فيهورى بها  
إلى أسفل سافلين ولا الضالين أمين .